إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨ م

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٩٨٨٨

الترقيم الدولي: 978-977-6618-53-4

الناشر

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

٢٣ شارع محمد عبده - خلف الجامع الأزهر - القاهرة
٠٠٢٢٥١١٧٧٤٧
فرع المنصورة: شارع الهادي - عزبة عقل - المنصورة
ت: ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ - ٠٠٢٠١٠٠٧٧١١٦٦٥
٠٠٢٠١٠٩١٣٧٨٥٨٣
واتس/ ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣
Dar_Elollaa@hotmail.com

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

تأليف

الفقير إلى عفو ربه العزيز

محمد بن هاشم عبد العزيز

عَفَا اللهُ عَنْهُ

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إلىٰ الحبيب الغالي رفيق غربتي، ومحل سري وثقتي، إلىٰ أخي الحبيب محمود عزت، الذي جعله الله لي سبب خير، وكان لي بفضل الله عونًا في كثير من الأمور فأقول له: جزاك الله عني خير الجزاء، علىٰ ما أوليتني به من عناية واهتمام، ووالله مهما قلتُ فلن أوفيك حقك، وماذا عساي أقول؟

فأنت نعم الرجل أخلاقًا وعلمًا وتواضعًا وكرمًا. هكذا عرفتك ورأيتك أحسبك هكذا، ولا أزكيك علىٰ الله، فجزاك الله عني خير الجزاء، ولا حرمني الله من صحبتك، وجمعنا في الجنة وتحت ظلِّ عرشه اللهم آمين.

أخي الحبيب:

قد كنت دومًا حين يجمعنا الندىٰ... نِعْمَ الصديق والجوانح شاكره
واليوم أشعر في قرارة خاطري... أن الذي قد كان أصبح نادره
لا تحسبوا أن الصداقة لقْيَة... بين الأحبة أو ولائم عامره
إنَّ الصداقة أن تكون من الهوىٰ... كالقلب للرئتين.. ينبض هادره
يا أيها الأخ الحبيب تلطفًا... قد كانت الألفاظ عنك.. لقاصره
وكبا جواد الشعر يخذل همتي... ولربما خذل الجوادُ مناصِرَهْ

***

مقدمة المؤلف

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَصَبَ مِنْ كُلِّ كَائِنٍ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ بُرْهَانًا، وَتَصَرَّفَ فِي خَلِيقَتِهِ كَمَا شَاءَ عِزًّا وَسُلْطَانًا، وَاخْتَارَ الْمُتَّقِينَ فَوَهَبَ لَهُمْ بِنِعْمَتِهِ أَمْنًا وَإِيمَانًا، عَمَّ الْمُذْنِبِينَ بِرَحْمَتِهِ عَفْوًا وَغُفْرَانًا، وَلَمْ يَقْطَعْ أَرْزَاقَ أَهْلِ الْمَعْصِيَةِ جُودًا وَامْتِنَانًا، وَأَعَادَ شُؤْمَ الْحَسَدِ عَلَىٰ الْحَاسِدِ لأَنَّهُ ارْتَكَبَ عُدْوَانًا.

رَوَّحَ أَهْلَ الإِخْلاصِ بِنَسِيمِ قُرْبِهِ، وَحَذَّرَ يَوْمَ الْقِصَاصِ بِجَسِيمِ كَرْبِهِ، وَأَكْرَمَ الْمُؤْمِنَ بِهِ إِذْ كَتَبَ الإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ، وَدَعَا الْمُذْنِبَ إِلَىٰ تَوْبَةٍ لِغُفْرَانِ ذَنْبِهِ.

أَحْمَدُهُ حَمْدَ عَبْدٍ لِرَبِّهِ مُعْتَذِرٍ إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبِهِ، وَأُقِرُّ بِتَوْحِيدِهِ إِقْرَارَ مُخْلِصٍ مِنْ قَلْبِهِ، وَأُصَلِّي عَلَىٰ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ، أما بعد:

فإنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ أن يعيش الإنسان في صحبة كتاب الله سبحانه وتعالىٰ، كما أن الشرف كل الشرف أن يعيش المرءُ خادمًا لكتاب ربِّه، ولا يخفىٰ أن القرآن هو المنهاج الذي ارتضاه الله للناس، وبيَّن الله سبحانه وتعالىٰ أن القرآن نور قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ ﴾ [النساء:١٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ

عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢].

ووضَّح ربُّنا أن القرآن هدىٰ وشفاء قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت:٤٤].

– ولقد أمرنا ربُّنا بتدبر القرآن الكريم فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

ومن هنا أقول: وأنا أتدبر القرآن الكريم كما أمرني ربي وخالقي سبحانه وتعالىٰ، استوقفني قول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦] ولفت نظري ما قاله ابن الجوزي في «صيد الخاطر»: تأملت أحوال الناس، فرأيت جمهورهم منسلًّا من ربقة العبودية، فإن تعبدوا، فعادة؛ أو فيما لا ينافي أغراضهم منافاة تؤذي القلوب.

– كما لفت نظري أمر آخر وهو: أن مسألة قيام الأمم، نلاحظ فيها أن فترة الإعداد تكون طويلة جدًّا قد تبلغ عشرات السنين، بينما تقصر فترة

التمكين حتىٰ لا تكاد أحيانًا تتجاوز عدة سنوات!!

✍ **فعلىٰ سبيل المثال..**

بذل المسلمون جهدًا خارقًا لمدة تجاوزت ثمانين سنة؛ وذلك لإعداد جيش يواجه الصليبيين في فلسطين، وكان في الإعداد علماء ربانيون، وقادة بارزون، لعل من أشهرهم عماد الدين زنكي ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي رحمهم الله جميعًا، وانتصر المسلمون في حطين، بل حرروا القدس وعددًا كبيرًا من المدن المحتلة، وبلغ المسلمون درجة التمكين في دولة كبيرة موحدة، ولكن العجيب- لم يستمر هذا التمكين إلا ست سنوات، ثم انفرط العقد بوفاة صلاح الدين، وتفتتت الدولة الكبيرة بين أبنائه وإخوانه، بل كان منهم من سلم القدس بلا ثمن تقريبًا إلىٰ الصليبيين!!

✍ **وهنا يأتي أمر يزيل العجب وهو**: أن المغزىٰ الحقيقي لوجودنا في الحياة ليس التمكين في الأرض وقيادة العالم، وإن كان هذا أحد المطالب التي يجب علىٰ المسلم أن يسعىٰ لتحقيقها، ولكن المغزىٰ الحقيقي لوجودنا هو: عبادة الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

وحيث إننا نكون أقرب إلىٰ العبادة الصحيحة لله في زمن المشاكل والصعوبات، وفي زمن الفتن والشدائد، أكثر بكثير من زمن النصر والتمكين، فإن الله - من رحمته بنا- يطيل علينا زمن الابتلاء والأزمات؛ حتىٰ نظل قريبين منه فننجو، ولكن عندما نُمكَّن في الأرض ننسىٰ العبادة، ونظن في أنفسنا القدرة علىٰ فعل الأشياء، ونفتن بالدنيا، ونحو ذلك من أمراض

التمكين.

ومن هنا: وقفت في هذه الصفحات وقفات مع العبودية، تكلمت فيها عن هذه النقاط:

١- تعريف العبودية وبيان العبودية الخاصة والعامة.

٢- دواعي عبودية الله ﷻ.

٣- مراتب العباد في درجات العبودية.

٤- أشرف الأوصاف هو العبادة.

٥- تحرير الإنسان من عبودية غير الله تعالىٰ.

- وكنت حريصًا علىٰ أن يكون كلامي دون إسهاب مملٍّ، ولا اختصار مُخِلٍّ، وأسأل الله أن تكون هذه الكلمات نافعة لكاتبها وقارئها وناشرها بين يدي الله سبحانه وتعالىٰ.

عملي في هذه الصفحات:

انطلقت مستعينًا بالله طالبًا منه العون والمدد والتوفيق وقمت بالآتي:

١- جعلت تحت كل عنوان عدَّة عناصر، أتكلم عنها وأوضحها.

٢- كنتُ حريصًا علىٰ أن يكون حديثي من كلام الله ومن كلام رسول الله ﷺ، وبعد ذلك أذكر بعض الأقوال من كلام السلف الصالح.

٣- عزوت الآيات إلىٰ مواضعها في القرآن الكريم ذاكرًا اسم السورة ورقم الآية.

٤- قمت بتخريج الأحاديث، فأذكر من روىٰ الحديث من أئمة هذا

الشأن، وإن كان في البخاري ومسلم أو في أحدهما اكتفيت، وإن كان في غيرهما أذكر من رواه وخرجه مستصحبًا ذكر كتاب آخر يوضح درجة الحديث من صحة أو ضعف أو..... وهذا في الأعم الغالب.

٥- القصص والمواقف لها أثر في النفوس، ولهذا في بعض المواضيع كنت حريصًا علىٰ ذكر المواقف من كتب التاريخ المعتبرة، مع حرصي علىٰ انتقاء ما يتوافق مع العقل الصحيح والمنهج القويم دون شطط أو زيغ أو مغالاة.

٦- كما ذكرت في بعض الأحيان من كلام الشعراء والأدباء ما يخدم الموضوع، مع حرصي علىٰ انتقاء ما كتبت من شِعْرٍ يساعد ويخدم الموضوع.

وبعد هذا لا أستطيع أن أدّعي أنني جئت بما لم يأت به أحد وإنما هذا جهد المقل، وأسأل الله تعالىٰ أن ينفع بهذه الكلمات كاتبَها وقارئَها وناشرَها، وأن يجعلها خالصةً لوجهه الكريم، وأن يجعلها لي ذخرًا وزادًا في يوم لقياه إنه سميع قريب مجيب.

وأسأل الله أن يجازي عني أساتذتي خير الجزاء، فهم أهل فضل ومنّة.

وأسأل ربي سبحانه وتعالىٰ أن يرحم أمّي الغالية الحبيبة كما ربتني صغيرًا، وأن يمتعها بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، وأن يجمعها مع النبي ﷺ في الجنة.

- كما أسأله سبحانه أن يبارك لي في زوجتي الكريمة (أم نور) وأن يجزيها عني خير الجزاء.

- وأسأل الله أن يحفظ لي هبته الغالية ابنتي الحبيبة (نور) التي أسأل الله أن ينبتها نباتًا حسنًا، وأن تكون قرة عين لي في الدنيا والآخرة، كما أسأل الله لها السِّتر في الدنيا والآخرة هي وجميع بنات المسلمين.

وأسأل الله برحمته أن يحفظ بلاد المسلمين وأهل الإسلام.

- ثم أقول إن هذا العملَ عملٌ بشري يعتريه ما يعتري الإنسان من نقص.

- وأُشهد الله ﷻ أنّ كل خطإٍ وقعت فيه في كلامي أو في كتاباتي يخالف الصواب والمنهج الصحيح فأنا راجع عنه في حياتي وبعد مماتي.

وأختم قائلًا:

وليس يضرني وقوف أهل المعرفة علىٰ ما لي من التقصير، ومعرفتهم أن باعي في هذا الميدان قصير، فلئن أخطئ فمن الذي عُصِم؟! ولئن أُخَطَّا فمن الذي وُصِمَ؟!

وأعلمُ أن الخطأ والزلل، هما الغالبان علىٰ من خلق الله من عجل، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وأتمثل قول الشاعر:

لقد مضيت وراء الركب ذا عَرَجٍ ... مؤمِّلًا جبر ما لاقيتُ من عَرَج
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب الورىٰ في الناس من فرِجِ
وإن ضللتُ بقفر الأرض منقطعًا ... فما علىٰ أعرج في الناس من حَرَجِ

وأسأل أل الله تعالىٰ أن ينفعني وإخواني من طلاب العلم بهذا العمل، وأن

يخلص نيتي فيه لوجهه، فإن القلوب بيده وأن لا يجعل لأحد من خلقه فيه نصيبًا وأن ينفعني به يوم ألقاه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]. وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه ببنانه ورضيه بجنانه:
الفقير إلى عفو ربّه العزيز
محمد هاشم عبد العزيز
يوم الجمعة ٢٩شوال ١٤٣٩هـ
الموافق ١٣يوليو- ٢٠١٨م
٠٠٢٠١٠٠٣٠٦٢٠٦٥

***

مدخل وتمهيد

إن العبودية صفة ينبغي أن يعيش المرء حقيقتها، وأن تُظهرها صورة تعامله مع ربه من ذل وانكسار وخضوع وافتقار، وطاعة وهيبة وإجلال، وتعلق تام به، وفوق هذا كله: حبٌّ عظيمٌ له..

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن خضع لإنسان مع بغض له لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن له عابدًا».(١)

العبودية والفطرة:

من فضل الله علىٰ عباده أن جعل معاني العبودية مركوزةً فيهم، ومهما حاول المرء إظهار استغنائه عن ربه، ومهما اغتر بما حباه الله ﷻ من إمكانات إلا أنه يظهر علىٰ حقيقته كعبد ضعيف أمام الشدائد.. حينئذ تراه يتجه بكليته إلىٰ الله يطلب منه النجاة والحماية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس:٢٢].

فالشدائد والابتلاءات رحمة من الله ﷻ بالناس، ووسيلة يأخذهم بها إلىٰ

(١) العبودية لابن تيمية: (٣٤).

حظيرة العبودية: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام:٤٢].

السعادة الحقيقية:

من هنا ندرك سر شعور الإنسان الذي لا يعيش في حقيقة العبودية بأن هناك شيئا ما ينقصه مهما كان معه من إمكانات.

فتجده كثيرًا ما يمر بلحظات يتملكه فيها الخوف من المستقبل المجهول، خاصة علىٰ أولاده من بعده.

في صدره ضيق ووحشة مهما بدا عليه من مظاهر الفرح والسعادة..

تأتيه أوقات يشعر فيها بضعفه وعجزه واحتياجه إلىٰ قوة تحميه..

هذه الأمور لا يمكن للإنسان أن يتغلب عليها، أو إغلاق الأبواب دونها بالأسباب المادية، ولو أُوتي مالًا مثل مال قارون، أو قوة وسلطانًا بلا حدود، بل إن هذه الأمور ستزيده شعورًا بالوحشة والاضطراب وعدم الأمان.

فلا سبيل لحدوث السلام الداخلي، والشعور بالسعادة والطمأنينة والسكينة إلا من خلال العيش في حقيقة العبودية والتجلبب بجلبابها، ولِمَ لا ومن خلالها يشعر المرء بالأمان وهو يعيش في كنف ربه المقتدر الذي يملك كل شيء، ويقدر علىٰ فعل أي شيء يريده، ويستطيع أن يحفظه من كل سوء، ويؤمن مخاوفه، ويحميه ويستره: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس:٦٢- ٦٣].

فعلىٰ سبيل المثال: الخوف علىٰ مستقبل الأولاد وهو أمر يتملك مشاعر الكثير من الناس فيجعل كلَّ همهم جمع المال ليؤمنوا لأولادهم مستقبلهم.. هذا الخوف لا يتملك من يرتدي رداء العبودية لله ﷻ، وكيف

يتملكه وقد طمأنه ربه وقال له: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء:٩].

وما دام العبد يوقن أن الله هو الذي يكفل الجميع ويكلؤهم بالليل والنهار ففيم الخوف؟!

✍ **ويؤكد ابن القيم علىٰ هذا المعنىٰ فيقول:** ففي القلب شَعْث لا يلمه إلا الإقبال علىٰ الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه.

وفيه فاقه لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم يسد تلك الفاقة منه أبدًا. (١)

عجزي كنزي:

معنىٰ ذلك أن خير أوقات المرء هي تلك الأوقات التي يحدث فيها سلام داخلي بين جوهر حقيقته كعبد وبين ما يعيشه من معاني العبودية..

✍ **يقول ابن عطاء:** خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وترد فيه إلىٰ وجود ذلتك.

✍ **وفي نفس المعنىٰ يقول ابن تيمية:** من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية.

فبالعبودية يدخل المرء جنة الدنيا ونعيمها الذي لا يشبهه أي نعيم آخر.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص (٥٦٦، ٥٦٧).

✍ **يقول ابن القيم**: فمحبة الله تعالىٰ، ومعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب، والخوف، والرجاء، والتوكل، والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي علىٰ هموم العبد وعزماته، وإرادته، هو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وقرة عين المحبين، وحياة العارفين.

✍ **ويحكي عن شيخه - ابن تيمية - أنه قال مرة**: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنىٰ رحت فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

✍ **ويستطرد ابن القيم قائلًا**: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم والمسابقة إليها. (١)

أهمية العبودية:

إن العبودية هي الحالة التي يحب الله ﷻ أن يراها متمثلة في عباده، وعلىٰ قدر تمثلها فيهم يكون رضاه عنهم، وقربه منهم.

ومما يؤكد هذا المعنىٰ ما ورد عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا**

(١) الوابل الصيب: (٩٦ - ٩٨).

مِنْ حَالٍ يَكُونُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أَنْ يَرَاهُ سَاجِدًا مُعَفِّرًا وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ». (١)

بل إن أيَّ وقت يحدث فيه للعبد انكسار فإن الله ﷻ يعامله في هذا الوقت معاملة خاصة، فالمريض – علىٰ سبيل المثال – يكسره المرض، لذلك تجده – سبحانه – قريبًا منه، بل ويحثنا علىٰ عيادته للتخفيف عنه كما جاء في الحديث: «**أن الله ﷻ يقول يوم القيامة: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟..** ». (٢)

✍ **يقول ابن القيم:** وَهَذَا – وَاللهُ أَعْلَمُ – هُوَ السِّرُّ فِي اسْتِجَابَةِ دَعْوَةِ الثَّلَاثَةِ: الْمَظْلُومِ، وَالْمُسَافِرِ، وَالصَّائِمِ، لِلْكَسْرَةِ الَّتِي فِي قَلْبِ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَإِنَّ غُرْبَةَ الْمُسَافِرِ وَكَسْرَتَهُ مِمَّا يَجِدُهُ الْعَبْدُ فِي نَفْسِهِ، وَكَذَلِكَ الصَّوْمُ، فَإِنَّهُ يَكْسِرُ سُورَةَ النَّفْسِ السَّبْعِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَيُذِلُّهَا.. (٣)

ومما يؤكد أن العبودية من ذل وانكسار، وخضوع وتواضع هي الحالة التي يحبها الله ﷻ من العبد ما حدث للمرأة البغي التي سقت الكلب الظمآن وما تلا ذلك من مغفرة الله لها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ**». (٤)

---

(١) المعجم الأوسط (٦٠٧٥)، ضعيف الجامع: (٥١٦٧)

(٢) صحيح مسلم: (٢٥٦٩).

(٣) مدارج السالكين: (١/ ٣٠٧).

(٤) صحيح البخاري: (٣٤٦٧).

فمَا قَامَ بِقَلْبِ الْبَغِيِّ الَّتِي رَأَتْ ذَلِكَ الْكَلْبَ - وَقَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ يَأْكُلُ الثَّرَىٰ - فَقَامَ بِقَلْبِهَا ذَلِكَ الْوَقْتَ - مَعَ عَدَمِ الْآلَةِ، وَعَدَمِ الْمُعِينِ وَعَدَمِ مَنْ تُرَائِيهِ بِعَمَلِهَا - مَا حَمَلَهَا عَلَىٰ أَنْ غَرَّرَتْ بِنَفْسِهَا فِي نُزُولِ الْبِئْرِ، وَمَلْءِ الْمَاءِ فِي خُفِّهَا، وَلَمْ تَعْبَأْ بِتَعَرُّضِهَا لِلتَّلَفِ، وَحَمْلِهَا خُفَّهَا بِفِيهَا، وَهُوَ مَلْآنُ، حَتَّىٰ أَمْكَنَهَا الرُّقِيُّ مِنَ الْبِئْرِ، ثُمَّ تَوَاضُعُهَا لِهَذَا الْمَخْلُوقِ الَّذِي جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ بِضَرْبِهِ، فَأَمْسَكَتْ لَهُ الْخُفَّ بِيَدِهَا حَتَّىٰ شَرِبَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرْجُوَ مِنْهُ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، فَأَحْرَقَتْ أَنْوَارُ هَذَا الْقَدْرِ مِنَ التَّوْحِيدِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا مِنَ الْبِغَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا. (١)

✍ **من هنا ندرك قول أحد الْعَارِفِينَ**: أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ أَبْوَابِ الطَّاعَاتِ كُلِّهَا، فَمَا دَخَلْتُ مِنْ بَابٍ إِلَّا رَأَيْتُ عَلَيْهِ الزِّحَامَ، فَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ الدُّخُولِ، حَتَّىٰ جِئْتُ بَابَ الذُّلِّ وَالِافْتِقَارِ، فَإِذَا هُوَ أَقْرَبُ بَابٍ إِلَيْهِ وَأَوْسَعُهُ، وَلَا مُزَاحِمَ فِيهِ وَلَا مُعَوِّقَ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَضَعْتُ قَدَمِي فِي عَتَبَتِهِ، فَإِذَا هُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخَذَ بِيَدِي وَأَدْخَلَنِي عَلَيْهِ.

✍ وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ، فَلْيَلْزَمْ عَتَبَةَ الْعُبُودِيَّةِ. (٢)

التمرد على العبودية:

العبودية هي الحالة التي يحب الله ﷻ أن يراها بادية علىٰ خلقه، وعلىٰ قدر تمثلها فيهم تكون ولايته ونصرته لهم: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦]، وفي المقابل فإن من أكثر الأمور التي تغضبه سبحانه هو تمرد

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٤١).
(٢) مدارج السالكين: (١/ ٤٢٩).

المرء علىٰ ارتداء رداء العبودية، واستبداله برداء العز والكبر.. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ**». (١)

فالكبر مناف للعبودية، لذلك فهو من أكبر الذنوب وأخطرها، وصاحبه يحرم من المعية والتوفيق والولاية والنصرة الإلهية: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

إن الشرف العظيم للإنسان أن يكون عبدا لله ﷻ، يسأله دوما حاجته، ويطلب منه الحماية والنصرة، والعون والمدد، فإذا ما استكبر عن ذلك، وظن أنَّ بمقدوره العيش في الحياة دون معونة من الله فقد ظلم نفسه، وطغىٰ طغيانا لا حدود له، ومن ثَمَّ كان العقاب الأليم في انتظاره: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر:٦٠].

العبودية لا تتغير:

منذ بدء الخليقة وهبوط آدم عليه السلام علىٰ الأرض، وحتىٰ قيام الساعة فإن المطلوب من الإنسان في كل زمان ومكان أن يكون عبدًا لله ﷻ.

هذه هي الوظيفة التي خُلق جميع البشر من أجل القيام بها مدة وجودهم علىٰ الأرض وذلك من سن البلوغ حتىٰ نهاية الأجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة:٢١].

المطلوب من الجميع أن يتجه بمشاعره نحو الله... أن يحبه ويخافه

---

(١) صحيح مسلم: (٢٦٢٠).

ويتذلل إليه ويهابه ويجله ويتقيه...

هذه العبودية المطلوبة من البشر جميعا تحتاج بلا شك إلىٰ مظاهرَ تظهرها، وأعمال بالجوارح تُعبر عنها... من هنا كانت الشرائع السماوية التي تحدد للناس أشكال الأعمال التي ينبغي عليهم أن يقوموا بها إظهارًا لعبوديتهم لله ﷻ.

والملاحظ أن الشرائع السماوية مختلفة في بعض أعمالها وهيئاتها ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]؛ إلا أنها تشترك جميعها في كونها تعبر عن معاني العبودية لله ﷻ، والتي لا ينبغي أن تختلف من شخص لآخر مهما كان وضعه أو مكانه أو زمانه الذي يحيا فيه.

ومن أمثلة اختلاف شرائع من قبلنا عن شريعتنا قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام:١٤٦].

لا بديل عن الاتباع:

قد يقول قائل: ولماذا لا يُترك الناس للتعبير عن عبوديتهم لله ﷻ حسب ما يرون؟

والجواب: لو تُرك للناس تحديد الأعمال التي يظهرون من خلالها عبوديتهم لله ﷻ لحدث اختلاف كبير بينهم، ولتشدد البعض وتسيب البعض الآخر.

فعلىٰ سبيل المثال: قد يرىٰ إنسان أن إظهار المسكنة لله ﷻ يستلزم أن

يظل واقفًا تحت أشعة الشمس فترةً طويلةً من الوقت، أو ألا ينام أو يأكل أو يتزوج.

وقد يرىٰ بعض الناس مثلًا أنه ما دام القلب متجها إلىٰ الله فليس من الضروري القيام بأعمال أو طاعات له سبحانه...، وهكذا.

من هنا تظهر قيمة الالتزام بالعبادات والشرائع التي جاءت بها الرسل والتي شرعها الله ﷻ لعباده، وهو أعلم بهم، وبما يناسبهم من أعمال تُعبر عما في قلوبهم تجاهه سبحانه.

بل إن من أهم مظاهر العبودية: الانقياد والاستسلام لله ﷻ وطاعة رسوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١].

- ومن هنا نبدأ حديثنا عن العبودية ونسأل الله أن نكون من أهلها.

***

تعريف العبودية:

- **العبودية هي**: الخضوع والانقياد والطاعة لله تبارك وتعالىٰ.

والعبودية لله سبحانه وتعالىٰ هي الغاية من وراء هذا الخلق، كما قال تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وهي مفتاح دعوة الرسل؛ إذ ما بعث الله رسولًا إلا قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٩].

والعبودية اصطلاحًا هي: الأعمال الصالحة التي تُؤدىٰ لله تبارك وتعالىٰ، ويُفرد الله بها، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الْعِبَادَة هِيَ اسْم جَامع لكل مَا يُحِبهُ الله ويرضاه من الْأَقْوَال والأعمال الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة. فَالصَّلَاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام وَالْحج وَصدق الحَدِيث وَأَدَاء الْأَمَانَة وبرّ الْوَالِدين وصلَة الْأَرْحَام وَالْوَفَاء بالعهود وَالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجهَاد للْكفَّار وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَان للْجَار واليتيم والمسكين وَابْن السَّبِيل والمملوك من الْآدَمِيّين والبهائم وَالدُّعَاء وَالذكر وَالْقِرَاءَة وأمثال ذَلِك من الْعِبَادَة.(١)

(١) العبودية: (ص: ٤٤).

العبودية خاصة وعامة:

العبودية العامة (الكونية) معناها أن كلمة (العبد) يقصد بها المعنىٰ العام للعبادة، فعبد بمعنىٰ: معبد، وتأتي العبادة الخاصة التي فيها (عبد) بمعنىٰ عابد.

والعبودية العامة: هي عبودية القهر والتسخير لنفاذ أمر الله تبارك وتعالىٰ في كل شيء، فلا يقدر كائن أن يمتنع عن شيء جبله الله عليه، وهذه العبودية تشمل جميع الكائنات؛ لأن الله سبحانه وتعالىٰ يتصرف في خلقه بمحض ربوبيته بما يشاء وكيف شاء، حتىٰ أطغىٰ الطغاة وأكبر الجبارين إذا شاء الله سبحانه وتعالىٰ أن يقبض روحه قبض روحه، وإن شاء أن يمرضه أمرضه، فيتصرف في خلقه سبحانه وتعالىٰ بما شاء، ولا رادَّ لمشيئته ولا لقضائه تبارك وتعالىٰ، ولا يستطيع أحد أبدًا أن يخرج عما يقدره الله له، فهذه العبودية تشمل جميع الناس: المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، وأهل الجنة وأهل النار، يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران:٨٣].

ويقول تبارك وتعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣].

وقال ﷻ في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**».(١)

(١) صحيح مسلم: (٢٥٧٧).

فجميع الكائنات لا تخرج عن مشيئته وقدرته وكلماته التامة التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، فهذه عبودية القهر والملك والتصرف كما تقتضيه ربوبيته تبارك وتعالىٰ.

فالعبودية هنا عامة، والعبد هنا بالمعنىٰ العام للعبودية بمعنىٰ: معبد، أي مقهور وذليل خاضع لكل ما يجريه الله سبحانه وتعالىٰ عليه.

أما العبودية الخاصة (الشرعية): فهي العبودية الاختيارية، عبودية الطاعة والانقياد والمحبة والاختيار، وهذه العبودية تصدر من المؤمنين الموحدين الذين يقومون بطاعته تعالىٰ وتمجيده وتقديسه، من الجن والإنس والملائكة.

فكلمة عبد هنا بمعنىٰ: عابد العبودية الاختيارية، ومنه قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزخرف:٦٨].

وقوله: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ [الزمر: ١٧- ١٨] وقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان:٦٣].

وقوله: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الإنسان:٦].

إذًا: الخلق كلهم عبيد ربوبيته ﷻ، وأهل طاعته وولايته هم عبيد ألوهيته، فالعبودية العامة هي الملك والقهر والتسخير.

أما العبودية الاختيارية فهي توحيد المعبود باختياره، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد ألوهيته.

- ولابن القيم ﷺ كلام رائع حول العبودية وانقسامها لعامة وخاصة ومن المناسب هنا ذكر كلامه ﷺ تعالىٰ، يقول ابن القيم: الْعُبُودِيَّةُ نَوْعَانِ: عَامَّةٌ، وَخَاصَّةٌ.

فَالْعُبُودِيَّةُ الْعَامَّةُ عُبُودِيَّةُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّهِمْ لِلَّهِ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، فَهَذِهِ عُبُودِيَّةُ الْقَهْرِ وَالْمُلْكِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣] فَهَذَا يَدْخُلُ فِيهِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الفرقان:١٧] فَسَمَّاهُمْ عِبَادَهُ مَعَ ضَلَالِهِمْ، لَكِنْ تَسْمِيَةً مُقَيَّدَةً بِالْإِشَارَةِ، وَأَمَّا الْمُطْلَقَةُ فَلَمْ تَجِئْ إِلَّا لِأَهْلِ النَّوْعِ الثَّانِي.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزمر:٤٦]، وَقَالَ: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [غافر:٣١]، وَقَالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر:٤٨] فَهَذَا يَتَنَاوَلُ الْعُبُودِيَّةَ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ.

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي: فَعُبُودِيَّةُ الطَّاعَةِ وَالْمَحَبَّةِ، وَاتِّبَاعِ الْأَوَامِرِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزخرف:٦٨]، وَقَالَ: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر:١٧، ١٨]،

وَقَالَ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر:٣٩، ٤٠]، فَقَالَ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢]. فَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَبِيدُ رُبُوبِيَّتِهِ، وَأَهْلُ طَاعَتِهِ وَوِلَايَتِهِ هُمْ عَبِيدُ إِلَهِيَّتِهِ، وَلَا يَجِيءُ فِي الْقُرْآنِ إِضَافَةُ الْعِبَادِ إِلَيْهِ مُطْلَقًا إِلَّا لِهَؤُلَاءِ.

وَأَمَّا وَصْفُ عَبِيدِ رُبُوبِيَّتِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ فَلَا يَأْتِي إِلَّا عَلَىٰ أَحَدِ خَمْسَةِ أَوْجُهٍ:

* **إِمَّا مُنكَّرًا**، كَقَوْلِهِ: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم:٩٣].

* **وَالثَّانِي** مُعَرَّفًا بِاللَّامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ ﴾ [غافر:٣١]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر:٤٨].

* **الثَّالِثُ**: مُقَيَّدًا بِالْإِشَارَةِ أَوْ نَحْوِهَا، كَقَوْلِهِ: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الفرقان:١٧].

* **الرَّابِعُ**: أَنْ يُذْكَرُوا فِي عُمُومِ عِبَادِهِ، فَيَنْدَرِجُوا مَعَ أَهْلِ طَاعَتِهِ فِي الذِّكْرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزمر:٤٦].

* **الْخَامِسُ**: أَنْ يُذْكَرُوا مَوْصُوفِينَ بِفِعْلِهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٣].

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّمَا سَمَّاهُمْ عِبَادَهُ إِذْ لَمْ يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَنَابُوا إِلَيْهِ،

وَاتَّبَعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، فَيَكُونُوا مِنْ عَبِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَالطَّاعَةِ.

وَإِنَّمَا انْقَسَمَتِ الْعُبُودِيَّةُ إِلَىٰ خَاصَّةٍ وَعَامَّةٍ، لِأَنَّ أَصْلَ مَعْنَىٰ اللَّفْظَةِ الذُّلُّ وَالْخُضُوعُ، يُقَالُ طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ إِذَا كَانَ مُذَلَّلًا بِوَطْءِ الْأَقْدَامِ، وَفُلَانٌ عَبَّدَهُ الْحُبُّ إِذَا ذَلَّلَهُ، لَكِنْ أَوْلِيَاؤُهُ خَضَعُوا لَهُ وَذَلُّوا طَوْعًا وَاخْتِيَارًا، وَانْقِيَادًا لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَأَعْدَاؤُهُ خَضَعُوا لَهُ قَهْرًا وَرَغْمًا.

- وَنَظِيرُ انْقِسَامِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَىٰ خَاصَّةٍ وَعَامَّةٍ انْقِسَامُ الْقُنُوتِ إِلَىٰ خَاصٍّ وَعَامٍّ، وَالسُّجُودُ كَذَلِكَ، قَالَ تَعَالَىٰ فِي الْقُنُوتِ الْخَاصِّ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩]، وَقَالَ فِي حَقِّ مَرْيَمَ: ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم:١٢]، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

وَقَالَ فِي الْقُنُوتِ الْعَامِّ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [الروم:٢٦] أَيْ خَاضِعُونَ أَذِلَّاءُ.

وَقَالَ فِي السُّجُودِ الْخَاصِّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، وَقَالَ: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم:٥٨] وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

وَقَالَ فِي السُّجُودِ الْعَامِّ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴾ [الرعد:١٥].

وَلِهَذَا كَانَ هَذَا السُّجُودُ الْكُرْهُ غَيْرَ السُّجُودِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ

وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج:١٨]، فَخَصَّ بِالسُّجُودِ هُنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ وَعَمَّهُمْ بِالسُّجُودِ فِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل:٤٩] وَهُوَ سُجُودُ الذُّلِّ وَالْقَهْرِ وَالْخُضُوعِ، فَكُلُّ أَحَدٍ خَاضِعٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ، ذَلِيلٌ لِعِزَّتِهِ، مَقْهُورٌ تَحْتَ سُلْطَانِهِ تَعَالَىٰ.(١)

***

(١) مدارج السالكين: (١/ ١٢٥ - ١٢٨).

العبودية لها دواعي وبيانها كالتالي:

أولاً: من دواعي العبودية الفطرة:

أول داعٍ من دواعي العبودية هو الفطرة، فالإنسان إذا كانت فطرته سليمة فإنها تجذبه إلىٰ التوحيد، حتىٰ قال بعض العلماء: لو أن رجلًا منذ أن ولد وضع في الأغلال، وحبس في غرفة ولم يختلط بأحد حتىٰ بلغ وكلف، فسوف ينطق بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥]، [محمد: ١٩].

حقيقة الفطرة التي يولد عليها المولود:

إن المولود يولد علىٰ الفطرة، والفطرة هي الإسلام، وهذه الحقيقة نستنبطها من القرآن، ولقد دلتنا قصة آدم عليه السلام علىٰ أنه كان علىٰ عقيدة التوحيد، ودل القرآن الكريم والسنة النبوية علىٰ أن هذا لم يكن خاصًا بالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، وإنما هو عام في كل مولود.

يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

قال ابن كثير: أي: فَسَدِّدْ وَجْهَكَ وَاسْتَمَرَّ عَلَىٰ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ لَكَ، مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي هَدَاكَ اللهُ لَهَا، وَكَمَّلَهَا لَكَ غَايَةَ الْكَمَالِ، وَأَنْتَ

مَعَ ذَلِكَ لَازِمْ فِطْرَتَكَ السَّلِيمَةَ، الَّتِي فَطَرَ اللهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. وقوله: (حَنِيفًا) يعني: مائلًا عن الأديان إلىٰ الإسلام. (١)

وقد اختلف العلماء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم:٣٠] علىٰ قولين:

- **القول الأول**: مَعْنَاهُ لَا تُبَدِّلُوا خَلْقَ اللهِ، فَتُغَيِّرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَيْهَا. فَيَكُونُ خَبَرًا بِمَعْنَىٰ الطَّلَبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧].

- **القول الثاني**: هُوَ خَبَرٌ عَلَىٰ بَابِهِ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ سَاوَىٰ بَيْنَ خَلْقِهِ كُلِّهِمْ فِي الْفِطْرَةِ عَلَىٰ الْجِبِلَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، لَا يُولَدُ أَحَدٌ إِلَّا عَلَىٰ ذَلِكَ، وَلَا تَفَاوُتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم:٣٠] أَيْ: لِدِينِ اللهِ. وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَوْلُهُ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم:٣٠]: لِدِينِ اللهِ، خَلْقُ الْأَوَّلِينَ: [دِينُ الْأَوَّلِينَ]، وَالدِّينُ وَالْفِطْرَةُ: الْإِسْلَامُ. (٢)

- إن كل إنسان سليم الفطرة يشعر باعترافه بالله سبحانه وتعالىٰ؛ لأن هذا أمر فطري، ولذلك لا يحتاج إلىٰ مناقشة، بل ولا يقبل سليم الفطرة مبدأ المناقشة في قضية وجود الله تعالىٰ، لأن أقوىٰ دليل هو الفطرة، ويجد سليم الفطرة أن هذا الشعور مغروس في قلبه، ومغروس في فطرته، كما قال تعالىٰ:

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣١٣).

(٢) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣١٤) بتصرف.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم:٣٠].

وقال ﷻ في الحديث القدسي: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**».(١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَىٰ فِيهَا جَدْعَاءَ**».(٢)

---

(١) صحيح مسلم: (٢٨٦٥). ولفظه: عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ، قَالَ: وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، قَالَ: وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لَا يَبْتَغُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا، وَالْخَائِنُ الَّذِي لَا يَخْفَىٰ لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقَّ إِلَّا خَانَهُ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ «وَذَكَرَ» الْبُخْلَ أَوِ الْكَذِبَ وَالشِّنْظِيرُ الْفَحَّاشُ» وَلَمْ يَذْكُرْ أَبُو غَسَّانَ فِي حَدِيثِهِ: «**وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ**».

(٢) البخاري: (١٣٥٨)، ومسلم: (٢٦٥٨).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟**» ثُمَّ يَقُولُ: أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم:٣٠] الْآيَةَ. (١)

* **وهذه الفطرة**: هي الإيمان المعهود الذي أخذ الله عليه الميثاق من بني آدم، وذلك لما ضرب صلب آدم واستخرج منه كل ذريته عليه السلام، فأخذ عليهم الميثاق وهم في عالم الذر، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فكل إنسان أخذ عليه هذا الميثاق. (٢)

فنجد أنّ أقوىٰ دليل عند الإنسان علىٰ وجود الله هو الفطرة، وهذه مسألة غير قابلة للنقاش؛ لأنّ هذه الفطرة مغروسة في الأعماق، فهذا أقوىٰ دليل علىٰ أن الله خلقنا بفطرة، فنحس بالانجذاب إلىٰ التوحيد، والإقرار بألوهيته تبارك وتعالىٰ.

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٧).

(٢) قد يقول قائل: نحن الآن لا نذكر هذا الميثاق، فنقول: يكفي أن يخبرنا الوحي بوقوعه، فنؤمن بوقوعه كسائر أخبار الغيب التي أخبرنا الله عنها، فنصدقها وإن نسينا هذا الميثاق، ثم إنك تشعر في نفسك بهذا الميثاق وهذه الفطرة، فأنت تشعر أن قضية وجود الله سبحانه وتعالىٰ مثلًا لا تحتاج إلىٰ دليل بالنسبة للمؤمن السليم الفطرة، فلا تجد عنده جدلًا في قضية وجود الله، وإنما تجد الجدل في ذلك عند من تلوث بالشبهات والوساوس الشيطانية، ممن استمع لأهل الإلحاد والانحراف وأشباههم.

❑ **ثانيًا: من دواعي العبودية الشرائع:**

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء:١٥].

✍ **يقول صاحب «البحر المديد»**: ومن كمال عدله تعالىٰ: أنه لا يُعذِّب حتىٰ يُنذر ويُعذر علىٰ ألسنة الرسل، كما قال تعالىٰ: وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ أحدًا في الدنيا ولا في الآخرة حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا يُبين الحجج، ويمهد الشرائع، ويلزمهم الحجة.

وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ لا حُكم قبل الشرع، بل الأمر موقوف إلىٰ وروده، فمن بلغته دعوته، وخالف أمره، واستكبر عن أتباعه، عذبناه بما يستحقه.

وهذا أمر قد تحقق بإرسال آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء الكرام عليهم السلام في جميع الأمم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل:٣٦]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر:٢٤]، فإن دعوتهم إلىٰ الله قد انتشرت، وعمت الأقطار، واشتهرت، انظر إلىٰ قول قريش الذين لم يأتهم نبي بعد إسماعيل عليه السلام: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ [ص:٧]، فإنه يُفهم منه أنهم سمعوه في الملة الأولىٰ، فمن بلغته دعوة أحد منهم، بوجه من الوجوه، فقصَّر، فهو كافر مستحق للعذاب. فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة، مع إخبار النبي ﷺ أن آباءهم، الذين مضوا في الجاهلية، في النار، وأن ما يدحرج من الجُعَل [١] خير منهم، إلىٰ غير ذلك من الأخبار. قاله البقاعي.

✍ **وقال الإمام أبو عبد الله الحليمي**- أحد أجلَّاء الشافعية، وعظماء أئمة الإسلام - في أول منهاجه، في باب: «من لم تبلغه الدعوة»: وإنما قلنا: إن

---

(١) الجعل: حيوان معروف كالخنفساء... انظر: النهاية في غريب الحديث (جعل).

من كان منهم عاقلًا مميزًا إذا رأىٰ ونظر، إلا أنه لا يعتقد دينًا فهو كافر لأنه، وإن لم يكن سمع دعوة نبينا محمد ﷺ، فلا شك أنه سمع دعوة أحد من الأنبياء قبله، علىٰ كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم، ووفور مُددِ الذين آمنوا واتبعوهم، والذين كفروا بهم وخالفوهم، فإنَّ الخبر قد يبلغ علىٰ لسان المخالف، كما يبلغ علىٰ لسان الموافق، وإذا سمع أيَّةَ دعوة كانت إلىٰ الله تعالىٰ، فترك أن يستدل بعقله، كان مُعْرِضًا عن الدعوة فكفر، والله أعلم. وإن أمكن أن يكون لم يسمع قط بدين، ولا بدعوة نبي، ولا عرف أن في العالم من يُثبت إلهًا، وما نرىٰ أن ذلك يكون، فأمره علىٰ الاختلاف، يعني: عند من يُوجب الإيمان بمجرد العقل، ومن لا يُوجبه إلا بانضمام النقل. ا هـ.

✍ **وقال الزركشي**، في آخر باب النيات، من شرحه علىٰ المنهاج: وقد أشار الشافعي إلىٰ عسر تصور عدم بلوغ الدعوة، حيث قال: وما أظن أحدًا إلا بلغته الدعوة، إلا أن يكون قوم من وراء النهر. وقال الدميري: وقال الشافعي: ولم يبق أحد لم تبلغه الدعوة..(١)

- وقال تعالىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء:١٦٥].

✍ يقول صاحب «أضواء البيان»: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء:١٦٥]، لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا هَذِهِ الْحُجَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْهِ لَوْ عَذَّبَهُمْ دُونَ إِنْذَارِهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَهَا فِي سُورَةِ «طَهَ» بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٣/ ١٨٨-١٨٩).

قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه:١٣٤]، وَأَشَارَ لَهَا فِي سُورَةِ «الْقَصَصِ» بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [القصص:٤٧].

✍ **ويقول صاحب «البحر المديد»**: ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال: أرسلنا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ بعث الرُّسُلِ فيقولون: لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ينبهنا ويعلمنا ما جهلنا من أمر توحيدك والقيام بعبوديتك، فقطع عذر العباد ببعث الرسل، وقامت الحجة عليهم، وفي الحديث عنه- عليه الصلاة والسلام-: «**مَا أحدٌ أغيرَ مِنَ الله، ولذلكَ حرَّم الفواحِشَ ما ظهر منها وما بَطَنَ، وما أحدٌ أحبَّ إليهِ المدحُ من الله، ولذلكَ مدَحَ نفسَهُ، وما أحَدٌ أحبَّ إليهِ العذرُ مِنَ الله تعالىٰ، ولذلِكَ أرسَلَ الرَّسلَ وأنزَلَ الكُتبَ**»(١). (٢)

❐ ثالثًا: الآيات الكونية التي تكشفها لنا الكشوفات العلمية الحديثة:

ومن دواعي العبودية الآيات الكونية التي تكشفها لنا الكشوفات العلمية الحديثة لأن الإسلام يعتبر التفكر في الآفاق عبادة واجبة علىٰ المسلم، فعليه أن يتفكر في هذه الآفاق وفي مخلوقات الله سبحانه وتعالىٰ، فإنه لما نزلت

---

(١) الحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم: (١٠٣٧٨) ولفظه: «**مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ لأَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنَ اللهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ اعْتَذَرَ إِلَىٰ خَلْقِهِ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْحَمْدُ مِنَ اللهِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ حَمِدَ نَفْسَهُ**».

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (١/ ٥٩٢).

الآيات الخواتيم في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

ولنتأمل هذا الحديث عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَلَىٰ عَائِشَةَ فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فقَالَ: أَقُولُ يَا أُمَّهْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، قَالَ: فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**» قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾** [آل عمران:١٩٠]» الْآيَةَ كُلَّهَا. (١)

فهذا الوعيد يدل علىٰ وجوب التفكر في هذه الآيات بالذات، وهي تشمل التفكر في خلق الله سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) السلسلة الصحيحة (٦٨). وقال الألباني: رواه أبو الشيخ ابن حبان في «أخلاق النبي ﷺ» (٢٠٠ - ٢٠١). وابن حبان في «صحيحه» (٥٢٣ - الموارد) عن يحيىٰ بن زكريا بن إبراهيم.

ويقول تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام:٧٥] فالتفكر في هذا يورث اليقين.

ويقول تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١]، وهذه من أعظم آيات الله سبحانه وتعالىٰ، ويقول ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت:٥٣].

ومجال الإعجاز العلمي في نصوص القرآن والسنة مجال رحب جدًا، وحتىٰ لا نخرج من موضوعنا نكتفي بهذه الإشارة إلىٰ أن هذا أحد موجبات العبودية.

***

سبق معنا أن العبودية وظيفة الحياة قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

إذن نحن ما خلقنا ولا وجدنا إلا للعبادة، وأي عبدٍ جدَّ واجتهد فإنه يرتقي في سلم العبودية ويفوق الآخرين بغض النظر عن وضعه الاجتماعي أو المادي أو القبلي أو لأي دولة هو تابع.

ولذا فإن المطيعين من الإنس يتفاوتون فيما بينهم تفاوتًا عظيمًا في العبودية، ولهم مراتب عديدة لا يعلمها إلا رب العباد، وكل بحسب عمله، فمن الناس من ترقىٰ في سلم العبودية حتىٰ وصل إلىٰ مراتب الصالحين، ومنهم من وصل مراتب الشهداء، ومنهم من وصل إلىٰ مراتب الصديقين، وبين هذه المراتب، مراتب ومراتب لا يحصيها إلا الله، وهناك السابقون السابقون أولئك المقربون، وهناك أصحاب اليمين، وما أدراك ما أصحاب اليمين، وقد أعد الله جل وتعالىٰ لكل قسم من هذه الأقسام من الجزاء والنعيم ما يناسبه.

- إن مراتب العباد في درجات العبودية كثيرة لا يحصيها إلا رب العباد، وسنعرض بعض هذه المراتب، ومنزلة كل مرتبة عند الله جل وتعالىٰ.

وما أريد منك أيها القارئ الكريم إلا أن تضع نفسك في أحد هذه

المراتب، وتحت أي صنف يمكن أن تصنف نفسك، وأي قسم ترىٰ أنه ينطبق عليك، وتشعر أنك من أهله لنعلم قربنا وبعدنا، من هذه المراتب.

أولاً: مرتبة الرسالة والنبوة:

وهذه المرتبة هي أعلىٰ المراتب، وأصحابها هم المصطفون كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ ﴾ [الحج:٧٥]، وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل:٥٩]، ومن المعلوم أننا لسنا من هذه المرتبة لأنها بالاصطفاء.

وأهل هذه المرتبة أيضا يتفاوتون فيما بينهم وإن كانوا أنبياء، فبعضهم أفضل من بعض قال تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ففي مقدمتهم أولو العزم من الرسل ثم عامة الرسل، ثم عامة الأنبياء، وقد قاموا جميعا بالعبودية لله تعالىٰ حق قيام وكانوا قدوة لأقوامهم في حياتهم وبعد مماتهم.

ثانيًا: مرتبة أصحاب الأنبياء والرسل:

إن المرتبة الثانية هي مرتبة أصحاب الأنبياء والرسل، و أصحاب الأنبياء والرسل هم الحواريون والأنصار والربانيون، وهؤلاء ورثة الرسل وخلفاؤهم، وهم القائمون بما أمر الله به علىٰ لسان رسله، علمًا وعملًا، وهم الوسائط في التبليغ عن الرسول للأمة من بعده، فهم الربانيون وهم الحواريون، وهم الذين كانوا مع الرسل في حياتهم فآمنوا بهم ونصروهم.

- إن مرتبة الصحبة من أفضل مراتب الخلق بعد النبوة، أصحابها فضلوا

علىٰ بقية الأمة، اصطفاهم الله جل وتعالىٰ لصحبة رسله وأنبيائه، وأفضل هؤلاء علىٰ الإطلاق هم أصحاب رسول الله ﷺ، فهم خير أمة أخرجت للناس، يعني: أن أفضل الأمم بعد الأنبياء هم الصحابة، وأفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي... ثم.....؛ رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

لقد ءامنوا رضي الله عنهم حين كفر الناس، وصدقوا رسول الله ﷺ حين كذب الناس، فتحمل أصحاب هذه المرتبة من العذاب والنكال في دين الله ما الله به عليم، لقد بذلوا الأنفس والأموال في نصرة دين الله، لقد قاتلوا مع رسل الله، فقتلوا وقتلوا فأثابهم الله خيري الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:٢٩]. ومن المعلوم أننا لسنا من هذه المرتبة لأنها قد فاتتنا.

ثالثًا: مرتبة المجاهدين في سبيل الله:

إن أهل هذه المرتبة هم جند الله عز وجل، الذين يقيم الله بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه.

- هؤلاء هم الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله، ويكفي أنهم قد ربحوا التجارة مع الله، بما بذلوا من أموالهم وأنفسهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ١٠-١١].

لقد باعوا أنفسهم وأموالهم لله ﷻ فقبل البيع منهم وأثابهم الجنة، قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**».(١)

وكيف لا يكون للمجاهدين هذه المنزلة وهذه الدرجات وهم كلما نادىٰ المنادي، لبّوا وأقبلوا.

هنيئًا لأصحاب هذه المرتبة، فهم حقا الرجال والفرسان وهم الشجعان، فلا أدري هل نحشر مع هؤلاء ونعتبر منهم، يقول ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ عَلَىٰ شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ**».(٢)

وفي المقابل قال ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ**».(٣)

---

(١) البخاري: (٢٧٩٠).

(٢) النسائي: (٣٠٩٧). وصححه الألباني.

(٣) مسلم: (١٩٠٩).

رابعًا: مرتبة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء:

وهؤلاء لهم في سلم العبودية حظ وافر لأنهم الذين يحملون أمانة العلم، ويحفظون دين الله من الضياع، ويبلغونه للناس، ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم.

العلماء هم الذين يعلمون الجاهل، ويرشدون الضال، ويقومون بالذب عن دين الله تعالىٰ بالرد علىٰ المبتدعة، وأهل الأهواء.

العلماء هم الذين ينصحون السلاطين والزعماء ويردونهم عن ظلمهم، فهم الوارثون للأنبياء وهم الراسخون في العلم، قضوا زهرة حياتهم وصفوة شبابهم في حلق العلم وبين مجلدات الكتب، أسهروا ليلهم وقضوا نهارهم في حفظ المتون وقراءة الشروح، في الوقت الذي كان غيرهم يقضون أوقاتهم في اللهو واللعب، جدوا واجتهدوا حتىٰ وصلوا إلىٰ هذه المرتبة، ففضلهم عظيم، ومنزلتهم عالية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

فحقهم علينا كبير، فنسأل الله ﷻ أن يحفظهم وأن يطيل في أعمارهم، فمن للناس إذا ذهب العلماء، وكيف يتعلم الناس إذا سكت العلماء، ولهذا لا غرابة إذا استغفر لهم الحيتان في البحر، والنملة في جحرها، قال رسول الله ﷺ: «**وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**».(١)

- ولقد أشاد القرآن الكريم بالعلم وأهله، ورفع قدر «أولي العلم»

(١) سنن ابن ماجه: (٢٢٣). وصححه الألباني.

و«العالمين»، ونوه بمكانة «الذين أوتوا العلم»، كما بين أنه أنزل كتابه وفصل آياته لقوم يعلمون كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام:٩٧]، كما بث آياته في الآفاق وفي الأنفس لهؤلاء الذين يعلمون.

يقول تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨]، فانظر كيف بدأ الله تعالىٰ بنفسه، وثنىٰ بملائكته، وثلث بأولي العلم، واستشهد بهم علىٰ أعظم قضايا الوجود، وهي قضية الوحدانية.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وهو استفهام إنكاري معناه نفي التسوية بين أهل العلم وأهل الجهل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ...﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

منزلة العلم في حياة الأنبياء:

- ومن قرأ قصص الأنبياء في القرآن وجد أنَّ للعلم مكانًا في كل منها، وأن العلم كان وراء كل خير أو فضل أحرزه واحد منهم.

فآدم عليه السلام - أبو البشر - إنما فضله الله علىٰ الملائكة، وأظهر تفوقه عليهم، وأنه المرشح الصالح للخلافة في الأرض، بسبب «العلم» الذي علمه الله إياه، ولم يعلمه للملائكة، ولهذا لما سألهم عن أسماء الأشياء - والسؤال عن الاسم يتضمن السؤال عن المسمىٰ وخواصه - قالوا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٢- ٣٣].

وكذلك استطاع آدم أن يتطهر من ذنبه ـ حين أكل من الشجرة المنهي عنها ـ بما تعلمه من الكلمات التي تلقاها من ربه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة:٣٧].

ونوح ـ شيخ المرسلين ـ نجد أثر العلم في حسن دعوته لقومه، وجداله لهم حتىٰ أفحمهم. وقالوا كما حكىٰ القرآن: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾ [هود: ٣٢ – ٣٤].

وإبراهيم ـ خليل الرحمن ـ آتاه الله الحجة، فحاج نمروذ فأسكته، ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة:٢٥٨].

وحاج قومه فغلبهم ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: ٨٠ – ٨٣].

وقال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم:٤٣].

ويوسف لما بلغ أشده آتاه الله حكمًا وعلمًا، وعلَّمه من تأويل الأحاديث تعبير الرؤىٰ، وكان هذا العلم سببًا في إخراجه من السجن، وكذلك كان العلم مؤهلا لتوليه خزائن الأرض: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف:٥٥]، فالحفظ يمثل العنصر الأخلاقي، والعلم يمثل العنصر المعرفي، وكلاهما يكمل الآخر، وكلاهما ضروري لكل من يتولىٰ منصبًا قياديًّا.

ولقد برز يوسف في علم التخطيط الزراعي والاقتصادي في أيام الأزمات والمجاعات، ووضع خطة لخمسة عشر عامًا، وتولىٰ هو الإشراف علىٰ تنفيذها بنفسه، فأنقذ الله به مصر وما حولها من محنة كادت تودي بها.

وقال الله في شأن موسىٰ: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القصص:١٤].

ولما أعلم الله موسىٰ أن هناك رجلًا عنده من العلم ما ليس عنده، سافر إليه سفرًا طويلًا لقي فيه النصب والعناء، وطلب إليه أن يصحبه، بل أن يتبعه ليتعلم منه مما علمه الله، وهو موسىٰ الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه، فاشترط عليه أن يصبر علىٰ ما يراه منه، ولا يبادره بالسؤال حتىٰ يبين هو له، وقَبِلَ موسىٰ هذا الشرط: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي

عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الكهف: ٦٦ - ٧٠].

وفي قصة داود وسليمان قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل: ١٥- ١٦].

فالجهل بمثابة العمىٰ، والعلم بمثابة البصر، والجهل كالظلمة، والعلم كالنور، والجهل حرارة قاتلة، والعلم ظل ظليل، والجهل موت، والعلم حياة، ولا يمكن أن يستوي الضدان في هذا كله.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، أي لا يخشىٰ الله إلا العلماء الذين يعرفون مقامه، ويقدرونه حق قدره، والعلم الحقيقي هو الذي يورث الخشية.

وقد جاءت هذه الآية ـ أو هذا الجزء من الآية ـ بعد أن ذكر الله سبحانه بعضَ آياته في خلقه: في السماء والماء والنبات والجبال، ومن الناس والدوابّ والأنعام، مما يوحي بأن العلماء المذكورين هم علماء الطبيعة والكون والأرض والنبات والإنسان والحيوان. اقرأ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٧- ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم:٢٢].

والأوفق بـ «العالمين» هنا: أنهم العلماء بالظواهر الكونية في الفلك وفي الأرض، والعلماء باختلاف الألسنة والألوان، أي علماء الكون، وعلماء الإنسان.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:٩٧].

فالأقرب أن القوم الذين يعلمون هنا: هم علماء الفلك والطبيعة الجوية، فهم أقدر الناس علىٰ معرفة أسرار الله تعالىٰ واكتشاف سننه في جعل النجوم للاهتداء.

ومن هنا نرىٰ أن العلم الذي أشاد به القرآن ليس مقصورًا علىٰ علم الدين وحده، وإن كان علم الدين له الصدارة والأولوية، لأنه العلم الذي يتعلق بالمقاصد والغايات، وعلوم الدنيا تتعلق بالوسائل والآلات، ولكنها مهمة أيضًا لنماء الحياة وبقائها كما يريد الله تعالىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ونجد علم سليمان يتجلىٰ في فهم كلام النملة مع النمل، وفي كلام الهدهد الذي أدل عليه بالعلم، وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ [النمل:٢٢].

وفي قصة سليمان مع ملكة سبأ، نجد أن الذي أحضر عرشها من اليمن إلىٰ الشام قبل أن يرتد إليه طرفه إنما هو: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النمل:٤٠].

كما امتن الله علىٰ داود بتعليمه صناعة الدروع: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء:٨٠].

وفي قصة طالوت بين الله تعالىٰ أنه اختاره لزعامة القوم وقيادتهم بسبب مؤهلاته العلمية والمادية: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقال عن المسيح عيسىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران:٤٨].

وقال عن خاتم رسله محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

خامسًا: مرتبة المحسنين من أهل الإيثار والصدقة ودفع كربات الناس:

إن العطاء والبذل والجود صفة بارزة في حياة المؤمن فهي قاعدة المجتمع المؤمن المتكافل المتضامن، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَىٰ الْفَاقَةَ».(١)

- وأهل الإيثار والصدقة والإحسان إلىٰ الناس باختلاف حاجاتهم ومصالحهم في تفريج الكربات، ودفع الضرورات، وتسهيل المهمات، اعتقدوا اعتقادًا جازمًا بأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق كما قال تعالىٰ:

---

(١) صحيح مسلم: (٢٣١٢).

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦].

كما علموا أن ما ينفقونه ليس لهم، وإنما هو مال الله جعله في أيديهم واستخلفهم فيه قال تعالىٰ: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد:٧]، والاستخلاف في المال لينظر كيف يعملون، وكيف يتصدقون، وعلىٰ أية طريقة ينفقون.

- هؤلاء رغبوا فيما عند الله وآمنوا بأن ما ينفقونه من الأموال لا ينقص مما عندهم بل يزداد، وأنه ما نقص مال من صدقة، يستشعرون قول الباري ﷻ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١- ٢٦٢]، فهم إذا سمعوا ببناء مسجد تسابقوا، وإذا سمعوا بأرملة أو مسكينة إلىٰ خدمتها تدافعوا، وإذا علموا بمشروع خيري بذلوا، فهنيئا لهم، تساووا مع الناس في أداء الواجبات، وزادوا علىٰ الناس بما أنفقوا، رغبة فيما عند الله، لا يريدون من أحد جزاءً ولا شكورًا، ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان: ٨- ٩] فهل نحن من هؤلاء؟.

سادسًا: مرتبة الصالحين المحافظين على الفرائض والنوافل:

من مراتب عباد الله في درجات العبودية، مرتبة أولئك الصالحين، الذين قاموا بفرائض الله، وازدادوا عليها بالنوافل، بما فتح الله تعالىٰ عليهم، فمنهم المكثر من الركوع والسجود، ومنهم المكثر من قراءة القرآن، ومنهم المكثر

من الصوم، ومنهم الذاكرون، ومنهم الصابرون، فهؤلاء جاهدوا أنفسهم في تكثير الحسنات ومحو الزلات، فهم حقًا أهل الربح والخيرات، إذا عمل أحدهم خطيئة تاب وأناب، هم أهل قول الله تعالىٰ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة:١٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الذاريات:١٧].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قال: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**».(١)

وهذا الحديث يؤكد أن من حافظ علىٰ الفرائض والنوافل يصبح من أولياء الله ﷻ، كما أنَّ هؤلاء هم الموصوفون بأنهم سابقون في الخيرات.

سابعًا: مرتبة الدعاة إلى الله ﷻ:

هؤلاء طلبة علم ودعاة خير وإصلاح هداهم الله جل وتعالىٰ لطريق الخير والاستقامة، في زمن كثرت فيه المغريات، وعمت الفواحش والمنكرات، فحفظهم الله ﷻ، لكن لم يريدوا الخير لأنفسهم فقط، فحملوا علىٰ عواتقهم واجب الدعوة إلىٰ الله ﷻ، ومحاولة انتشال الهلكىٰ والغرقىٰ في وحل الخطيئة والمعصية إلىٰ بر السلامة والنجاة.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٥٠٢).

فانتشروا في أوساط الناس، يعلمون هذا، ويرشدون ذاك

- من لا يصلي بينوا له خطورة ترك الصلاة.

- ومن لا يزكي، وضحوا له الحكم الشرعي.

- ومن ابتلي بالمسكرات والمحرمات، حاولوا تخليصه مما هو فيه بتعظيم حرمات الله في قلبه قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠].

- ومن كان مقصرًا كملوا نقصه.

- ومن تعثر أقالوا عثرته.

كل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، والأسلوب الأمثل.

همهم هداية الناس، اقتطعوا من أوقات راحاتهم ومن أموالهم في سبيل الدعوة، خلت نفوسهم من حظ نفوسهم.

فنسأل الله ﷻ أن يحشرنا في زمرتهم، بحبنا لهم، وإن لم نعمل مثل أعمالهم، فالمرء مع من أحب.

ثامنًا: مرتبة أهل النجاة:

الذين أدوا الفرائض وتركوا المحارم، بلا زيادة ولا نقص، وهؤلاء الذين ينطبق عليهم وصف المقتصد.

مرتبة أهل النجاة، ممن يؤدي فرائض الله تعالىٰ ويترك محارمه، مقتصرًا علىٰ ذلك لا يزيد ولا ينقص، عما فرض عليه، فهؤلاء هم المفلحون، لحديث الرجل الذي جاء إلىٰ رسول ﷺ يسأله عن الإسلام ثم قال بعدما علم والله لا أزيد علىٰ هذا ولا أنقص، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أَفْلَحَ، إِنْ**

صَدَقَ»(١)، وفي رواية: «**دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ**».(٢)

فالنجاة في أداء الفرائض من الصلوات المفروضة والزكاة والصوم وحج البيت للمستطيع، واجتناب المحارم وعدم الوقوع فيها، فان أحد أصاب من الصغائر شيئًا، كفرت عنه الحسنات التي يقوم بها، لقول الله ﷻ: ﴿ **وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ** ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود: ١١٤].

ولقول النبي ﷺ: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**».(٣)

فهل على الأقل سنكون مع هؤلاء؟ ونكون من أهل النجاة، ونتجاوز القنطرة، نسأل الله أن يرحمنا برحمته.

تاسعًا: مرتبة الذين أسرفوا على أنفسهم:

وهؤلاء أدوا ما افترض الله تعالى عليهم، لكنهم غشوا معاصي وكبائر، وفعلوا ما نهى الله عنه، فأدوا جانبًا من العبودية، وفرطوا في جانب، يتوبون من

---

(١) البخاري: (٤٦). ولفظه: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّىٰ دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**». فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَصِيَامُ رَمَضَانَ**». قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**». قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ**». قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا وَلَا أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**».

(٢) البخاري: (٦٩٥٦).

(٣) رواه الترمذي: (١٩٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: (٩٧).

معاصيهم من وقت لآخر، لكن غواية الشيطان لهم دائمة، وقلوبهم إليها مائلة، فهم ظالمون لأنفسهم فيما يقعون فيه من الذنوب، لكنهم يسمعون قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]، فتميل قلوبهم إلىٰ التوبة والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ.

* * *

أشرف الأوصاف هو العبادة

ذكرنا مراتب البشر وبيّنَّا أنّ أعلىٰ البشر في العبودية هم الأنبياء، وهنا نشير إشارة نوضح فيها وبها أن أشرف وصف يوصف به الأنبياء هو العبادة فكيف بمن دونهم؟! نسأل الله أن نكون من العباد حقًا.

يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل:٥٩]، وهم الرسل عليهم السلام، وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الصافات:١٧١] فوصف الله الأنبياء بالعبودية له ﷻ.

وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل:٢]، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٣]، فهذا أشرف وصف يعتز به الأنبياء والمرسلون، وهو أنهم عباد لله تبارك وتعالىٰ.

- ويقول ﷻ مبينًا عبودية نوح له: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣]، ويقول تبارك وتعالىٰ في حق نوح أيضًا: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ [القمر:٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الصافات: ٧٩ - ٨١]، وقال أيضًا: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟

ﭐمْرَأَتَ نُوحٖ وَٱمْرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم:١٠].

- أما إبراهيم فقال الله ﷻ في وصفه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١١ ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١١]، وقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص:٤٥].

- أما موسىٰ فقال أيضًا فيه وفي أخيه هارون: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٢٢ ﴾ [الصافات: ١٢٠ - ١٢٢].

- أما عيسىٰ فكان أول ما نطق به في المهد أن قال: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ [مريم:٣٠].

وقال الله في حقه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف:٥٩]، وقال أيضًا: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ [النساء:١٧٢].

- أما خاتمهم وسيدهم ﷺ فقد وصفه الله بالعبودية وأوثر التعبير بلفظ العبد، للدلالة علىٰ أن مقام العبودية لله- تعالىٰ- هو أشرف صفات المخلوقين وأعظمها وأجلها، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه في هذا المقام لعبر به، وللإشارة- أيضا- إلىٰ تقرير هذه العبودية لله- تعالىٰ- وتأكيدها، حتىٰ لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية، كما التبسا في العقائد المسيحية، حيث ألهوا عيسىٰ ﵇، وألهوا أمه مريم، مع أنهما بريئان من ذلك.

✍ قال الشيخ القاسمي نقلا عن الإمام ابن القيم في كتاب «طريق

الهجرتين»: أكمل الخلق أكملهم عبودية لله- تعالىٰ، ولهذا كان النبي ﷺ أقرب الخلق إلىٰ الله- تعالىٰ- وأعظمهم عنده جاها، وأرفعهم عنده منزلة، لكماله في مقام العبودية، وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا تَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللهُ**».(١)

وكان يقول: «**لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ**». (٢)

وذكره- سبحانه- بسمة العبودية في أشرف مقاماته: في مقام الإسراء حيث قال:: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وفي مقام الدعوة حيث قال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن:١٩]، وفي مقام التحدي حيث قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣](٣).(٤) وقال أيضًا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦].

***

(١) السنن الكبرىٰ للنسائي: (١٠٠٠٦)، والسلسلة الصحيحة: (١٥٧٢).
(٢) صحيح البخاري: (٣٤٤٥).
(٣) تفسير القاسمي ج ١٠ ص ٣٨٨٤.
(٤) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٨/ ٢٨١/ ٢٨٢). بتصرف واختصار.

تحرير الإنسان من عبودية غير الله تعالى

إن الإنسان بطبيعته عابد، ولا يمكن أن يوجد في الكون إنسان غير عابد، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس:٦٠-٦١].

إذًا الإنسان بين خَيَارين لا ثالث لهما، إما أن يعبد الله، وإما أن يعبد الشيطان، لهذا نهانا الله ﷻ عن الثاني وأمرنا بالأول فقال: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ ﴾ [يس:٦٠-٦١].

إذًا أنا أنت وغيرنا من البشر الجميع عابدون، لكن منهم من يعبد الله، ومنهم من يعبد الشيطان.

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون:١-٦].

فالكافرون لهم دين يدينون به، بغض النظر عن ماذا يكون هذا الدين، منهم من يعبد – مثلًا– الحجر أو الشجر، ومنهم من يعبد الشيطان، و.....

– والآن نذكر ألوان العبودية التي يمكن أن يقع فيها الإنسان لنحذر منها:

أولاً: عبودية الجاه والمنصب:

إن من الناس من يعبد الجاه والمنصب والكرسي بحيث إنه يمكن أن يفقد كرامته وإنسانيته في سبيل الوصول لذلك، ثم يظل يجاهد للمحافظة علىٰ ما وصل إليه من جاه أو منصب أو كرسي أو شهرة، فيجاهد للمحافظة عليها كل لحظة بألوان من التذلل والمجاملة لا تنتهي، وربما بان الشيب في مفرق الإنسان وهو يجاهد للحصول علىٰ الوزارة مثلًا ثم مات وهو مستميت في المحافظة عليها، وكم من إنسان ضحىٰ بصداقات وعلاقات ومروءات، بل هناك من يضحي بأحكام شرعية وحلال وحرام في سبيل الوصول إلىٰ ذلك!!

ثانيًا: عبودية المال:

إن من الناس من يقع في عبودية المال، وهل المال يعبد؟ نعم إن المال يصبح معبودًا كما جاء في الصحيح من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**».(١)

وفي لفظ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**».(٢)

فسماه عبدًا لهذه الأشياء، وكيف لا يكون عبدًا لها وهي كل قلبه وهمه، فمن أجل المال يقيم العلاقات والصداقات، ويكرر المجاملات، ويسكت

---

(١) صحيح البخاري (٦٤٣٥).

(٢) سنن ابن ماجه (٤١٣٦)، صحيح الجامع: (١٣٥٥).

عن الجرائم والمخالفات، ويقطع رحمه ويعق والديه ويهمل زوجته وولده، ويسهر الليالي؛ بل يحرم -أحيانًا- من الراحة في نفسه وفي طعامه وفي شرابه وفي منامه.

- وهل رأينا عبدًا أكثر إخلاصًا وأكثر تفانيًا وأكثر سهرًا وأكثر استماته من عبد المال؟!

ما الذي أذل أعناق الرجال؟!

ما الذي وأد الكلمة الحرة في أفواههم؟!

ما الذي لقنهم دروس النفاق والتذلل والمجاملة؟!

إلا عبوديتهم للمال وقد نسي الكثيرون قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات:٥٨].

فأصبحوا وإن قالوا هذا بألسنتهم؛ إلا أنهم يعتقدون في قلوبهم أن الضار النافع والمعطي المانع الرازق هو فلان، فيتقربون إليه بسائر أنواع التقربات التي لو تقربوا بها إلىٰ الله تعالىٰ لرضي الله تعالىٰ عنهم وأرضاهم، ورزقهم في الدنيا حلالًا طيبًا، وكانت الجنة في الآخرة مثواهم، ولحقَّقُوا ما يريدون مع حفظ كرامتهم وعزتهم وإنسانيتهم لكن أكثر الناس لا يعلمون!! وإن ما يحول دون تحقيق الأهداف أن يصبح كثير من المسلمين أسرىٰ للمال وللقمة العيش التي يبحثون عنها؛ لذلك ينشغلون بها عما يجب من انشغالهم بأمور دينهم وآخرتهم.

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ علىٰ طمعٍ ... فإنَّ ذلك نقصٌ منك في الدِّينِ
لن يقدرَ العبدُ أن يعطيَك خَرْدلةً ... إلا بإذنِ الذي سوَّاك مِن طينِ

فــلا تصــاحبْ غنيًّــا تســتعزُّ بــه ... وكــن عفيفًــا وعظِّــمْ حُرمــةَ الــدِّينِ
واســـترزقِ اللهَ ممَّـــا في خزائنِـــه ... فـإنَّ رزقَـك بعـد الكـافِ والنُّـونِ

ثالثًا: عبودية العادة:

من ألوان العبودية: العبودية للعادة، والعبودية للوضع الراهن، وهذه من أكبر العبوديات التي ووجهت بها دعوة الإسلام – بل إن من تتبع آيات القرآن سيجد أن اتباع سنن الآباء كان سببًا في الصد عن سبيل الله بل نستطيع أن نقول: إن شطر الكفر الموجود في الأرض سببه العبودية للعادة، وللوضع الراهن، وهو ما يمكن أن نقول عنه: اتباع سنة الآباء.

– ولقد أرسل الله ﷻ أنبياءه إلىٰ الأرض، فأرسل نوحًا ﵇ إلىٰ قومه فصدوا عن سبيل الله بسنة الآباء قال تعالىٰ: ﴿ **فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٤]، فصدوا عن سبيل الله بسنة الآباء.

ثم أرسل الله ﷻ إبراهيم ﵇ فصدوا عن سبيل الله أيضًا بسنة الآباء: ﴿ ۞ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ** ﴿٥١﴾ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ** ﴿٥٢﴾ **قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١ – ٥٣].

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء:٦٩ – ٧٤].

ثم أرسل الله ﷻ موسىٰ إلىٰ قومه فصدوا عن سبيل الله بسنة الآباء، قال

موسىٰ لقومه: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٧ - ٧٨].

وأرسل الله ﷻ صالحًا عليه السلام إلىٰ ثمود ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

وأرسل الله ﷻ شعيبًا إلىٰ مدين، ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧].

وجاء نبينا ﷺ إلىٰ قومه فصدوا عن سبيل الله بسنة الآباء أيضًا، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:٢١ - ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود:١٠٩].

فسنة الآباء الصد عن سبيل الله ﷻ، اتخذوا سنة الآباء ذريعة؛ وذلك لأن للوالد تأثيرًا عميقًا جدًا في نفس الولد.

وكم حرص الناس علىٰ حفظ سلوكهم وعاداتهم وتقاليدهم أكثر من

حرصهم علىٰ دينهم، ولعلك تجد - وهذا مثل صغير حتىٰ يكون الكلام واقعيًا- لعلك تجد الأسرة -اليوم- من المسلمين يزوجون الفاسق فلا يعترض أحد، ولا يقاطع هذا الزواج أحد لكنهم حين يزوجون إنسانًا آخر غير ذي نسب تثور القبيلة أو العائلة عن بكرة أبيها، وتعترض بألوان الاعتراض بالقلب واللسان واليد، وكم شرق الناس بألوان من الخير والدعوة والمعروف، وضاقوا بها ذرعًا وحاربوها؛ لأنها غير مألوفة وغير معهودة لديهم ولم تكن موروثة من الآباء والأجداد.

ويستغل رجال الإعلام المزور هذه العاطفة عند الناس للمحافظة علىٰ الموروث، فيشغبون في وجه كل داع بأنه سوف يغير المألوف ويمزق المجتمع، وأنه يضل الآباء والأجداد، وبالتالي فهو مشكوك في ولائه للمجتمع، ومن قبل كانت قريش تقول للناس: إن النبي ﷺ يسفه الأحلام ويضل الآباء والأجداد، وقوم نوح كانوا يقولون: ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ﴾ [نوح:٢٣-٢٤]، فيثيروا مشاعر الناس في مقاومة الداعية بمثل هذه الأساليب.

رابعًا: عبودية الوطن:

يقول شوقي:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

ينبغي أن يؤصل أن حب الأوطان شيء مغروس في قلب كل شريف، وحب الوطن لا يتنافىٰ مع الإيمان، بل إن الله قدم الوطن علىٰ الأهل والأبناء، قال الله جل وعلا: ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾ [البقرة:٢٤٦]، فقدم الله الديار علىٰ الأبناء ثم قال الله جل وعلا: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟

أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم ﴾ [النساء:٦٦]، فجعل الخروج من الديار كقتل النفس، لكن قول شوقي هذا باطل، ولذلك فالاستشهاد به خطأ جدًا، فالجنة لا يمكن أن تقارن بأي وطن، ومن يدخل الجنة لا يحن إلىٰ شيء من الدنيا.

- إن الوطن الحقيقي في مفهوم الإسلام هو الجنة؛ لأن هذا هو الوطن الأصلي للمؤمنين؛ حيث كان فيه أبونا آدم عليه السلام.

ونحن في الدنيا في حالة نفي عن الوطن، وفي معسكر اعتقال عدونا الشيطان، فنحن في حالة نفي عن ذلك الوطن الحقيقي، ونحن في هذا المنفىٰ ساعون في العودة إلىٰ هذا الوطن، والمنهج الإسلامي هو الخريطة التي ترسم لنا طريق العودة إلىٰ الوطن الأم، وهذا المعنىٰ عبر عنه الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالىٰ بقوله:

فحيَّ علىٰ جنات عدنٍ فإنها ... منازلنا الأولىٰ وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترىٰ ... نعود إلىٰ أوطاننا ونسلم

فالجنة هي دار السعادة التي لا يبغي أهلها عنها حولًا، لا كما قال:

وطني لو سئلت بالخلد عنه ... نزعتني إليه في الخلد نفسي

أما في الدنيا الإسلام يتحكم حتىٰ في قلوبنا وفي عواطفنا، فنحن نحب جميع الأنبياء، ثم هناك مكانة خاصة للرسل، وأولهم أولو العزم من الرسل، وأفضلهم أشرف المرسلين وهو رسول الله ﷺ، ثم بعد الأنبياء الأولياء، وأعظم الأولياء علىٰ الإطلاق الصحابة، وأعظم الصحابة علىٰ الإطلاق أبو بكر رضي الله عنه، ويليه عمر.

إن السمع والبصر والفؤاد والعواطف والحب كل ذلك ليس متروكًا لاختيارك، بل الإسلام يحدد بقعة المحبة لكل شخص في قلبك، وأوليات

هذه المحبة، وترتيب ذلك.

وكذلك بالنسبة للأوطان، فأحب الأرض إلىٰ المؤمن في هذه الدنيا هي أولًا مكة المكرمة، ثم المدينة النبوية، ثم بيت المقدس، وقد بين النبي ﷺ أن محبته مكة المكرمة مبنية علىٰ أنها أحب بلاد الله إلىٰ الله، وبعض الناس الذين يتبنون المفهوم الخاطئ للوطنية يحاولون أن يستدلوا بالحديث علىٰ ما يدعون إليه، حيث يحاولون أن يغذوا مفهوم الوطنية بالحديث، ويقولون هذا دليل علىٰ حب الوطن، فإن الرسول ﷺ حنَّ إلىٰ مكة وقال: «**عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَىٰ اللهِ ﷻ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**». (١)

وهذا ليس دليلًا علىٰ حب الوطن، وإنما هو دليل علىٰ حب مكة؛ لأن مكة أحب بلاد الله إلىٰ الله، فلذلك كل مسلم يحب مكة المكرمة قبل أي مكان آخر علىٰ وجه الأرض، وكذلك المدينة النبوية الطيبة، وكذلك بيت المقدس الذي بارك الله حوله؛ فمحبتنا لهذه البقاع التي اختارها الله وباركها وأحبها فوق محبتنا لمسقط رؤوسنا، ومحضر الطفولة، ومرتع الشباب.

أما ما عدا هذه البلاد المقدسة فإن الإسلام هو وطننا، وهو أهلنا، وهو عشيرتنا؛ وحيث تكون كلمة الله ظاهرة فثمَّ وطننا الحبيب الذي نفديه بالنفس والنفيس، ونذود عنه بالدم والولد والمال، يقول الشاعر:

ولست أدري سوىٰ الإسلام لي وطنًا ... الشام فيه ووادي النيل سيان
وحيثما ذكر اسم الله في بلد ... عددت أرجاءه من لب أوطاني

(١) مسند أحمد: (٣١/ ١٣).

خامسًا: العبودية للحياة:

قال الله تعالىٰ: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ} [البقرة:٩٦]، وهم اليهود، يعني أي حياة مهما كانت، حياة الذل والخوف والهوان والعبودية وغير ذلك، المهم يريدون الحياة بأي ثمن لأنهم أصبحوا عبيدًا لها.

ما هي الأشياء التي تجعل الواحد منا يخاف؟ لماذا يخاف؟ يخاف إما علىٰ المنصب وإما علىٰ المال أو الحياة، فإذا كان عنده إيمان بأن الله تعالىٰ هو الضار النافع والمعطي والمانع والمحيي والمميت والخافض الرافع، ومقاليد الأمور كلها بيده، فله مقاليد السماوات والأرض، وهو مقدر الأقدار ومكور النهار علىٰ الليل، ومكور الليل علىٰ النهار، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وأن الخلق لو اجتمعوا علىٰ أن يضروك لن يضروك، وإن اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك أو عليك، فلماذا الإنسان يحجم ويجمجم ويحمحم، ويحسب الحسابات الطويلة العريضة ويتهيب من كل شيء؟!

سادسًا: العبودية للطاغوت:

إن القرآن الكريم قدم أحيانًا الكفر بالطاغوت علىٰ الإيمان بالله ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ﴾ [البقرة:٢٥٦].

عَنْ أَبِي مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ**

اللهِ»(١).

فلم يجعل الإقرار بكلمة التوحيد، عاصمًا للدم والمال، حتىٰ يضم إليها الكفر بما يعبد من دون الله.

ذلك أن الأشياء تتميز بأضدادها، فالإيمان بالحق لا يتميز ويتحقق إلا بالكفر بالباطل، والبراءة من أهله.

ولهذا أعلن إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام براءته من آلهة قومه وأصنامهم وعداوته لهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

وبهذا نعلم أن التوحيد الحق لا يتم إلا إذا انضم إلىٰ الإيمان بالله وعبادته، الكفر بالطاغوت والبراءة من أوليائه، ومن أجل ذلك كان نداء الرسل جميعًا إلىٰ قومهم ما عرفنا من قبل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

❐ ولكن ما معنى الطاغوت؟

✍ **قال عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين:** «وأما تعريف الطاغوت: فهو مشتق من طغا، وتقديره طغووت، ثم قلبت الواو ألفًا، قال النحويُّون: وزنه

(١) صحيح مسلم: (٢٣).

فعلوت، والتاء زائدة، وقال الواحدي: قال جميع أهل اللغة: الطاغوت: كل ما عبد من دون الله، يكون واحدًا وجمعًا، ويذكر ويؤنث، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠]، فهذا في الواحد.

وقال تعالىٰ في الجمع: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقال في المؤنث: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [الزمر:١٧]، قال: ومثله في أسماء الفلك يكون واحدًا وجمعًا ومذكرًا ومؤنثًا.

قال: قال الليث وأبو عبيدة والكسائي وجماهير أهل اللغة: الطاغوت كل ما عبد من دون الله، وقال الجوهري: الطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال، وقال مالك وغير واحد من السلف والخلف: كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما وكثير من المفسرين: الطاغوت الشيطان.(١) وهذه الأقوال تذكر أمثلة للطاغوت ولكنها لا تحصر كل أفراده.

وأضبط تحديد لمعنىٰ الطاغوت ما ذكره الإمام ابن القيم: وَالطَّاغُوتُ: كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ؛ فَطَاغُوتُ كُلِّ قَوْمٍ مِنْ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ غَيْرَ اللهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، أَوْ يَتْبَعُونَهُ عَلَىٰ غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنْ اللهِ، أَوْ يُطِيعُونَهُ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ؛ فَهَذِهِ طَوَاغِيتُ الْعَالَمِ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا وَتَأَمَّلْتَ أَحْوَالَ النَّاسِ مَعَهَا رَأَيْت أَكْثَرَهُمْ عَدَلُوا مِنْ عِبَادَةِ اللهِ إِلَىٰ

(١) المختصر المفيد في عقائد أئمة التوحيد: (ص: ١٢١).

عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، وَعَنْ التَّحَاكُمِ إِلَىٰ اللهِ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ إِلَىٰ التَّحَاكُمِ إِلَىٰ الطَّاغُوتِ، وَعَنْ طَاعَتِهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ إِلَىٰ طَاعَةِ الطَّاغُوتِ وَمُتَابَعَتِهِ. (١)

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ. وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ، إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَىٰ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ. (٢)

ختامًا أقول: لابد من تحرير الإنسان من العبودية لغير الله تعالىٰ بحيث يكون عبدًا لله تعالىٰ. لكن ما هي الوسائل؟

أقول: هذا كلام يطول وسأضرب لك مثالًا واحدًا فقط وهو الصلاة:

إن أول ما تكبر تقول: الله أكبر، فإن كل الأشياء وكل الأصنام، وكل العبوديات تسقط، ويبقىٰ الله تعالىٰ وحده فهو الكبير المتعال، ثم بعد ذلك ماذا تقول؟

تقول ما علمنا إياه رَسُول اللهِ ﷺ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، قَالَ: «**وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي، وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ،**

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١/ ٤٠).

(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد: (٢/ ١٢٢). وانظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع (ص: ٢٤).

وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ».(١)

فتعترف بأنك قد أقررت والتزمت بهذا المنهج الذي يجعل الحياة عبودية لله لا للطاغوت.

ثم تركع لله فتسبحه وتعظمه، فإذا رفعت رأسك من الركوع تقول: «**اللهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي**».(٢)

وبعد الصلاة تقول ما قاله رسولنا ﷺ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**».(٣) ماذا يعني هذا الكلام؟

يعني: الاعتراف بأن الأمور كلها لله، وأن الخلق ليسوا إلا بشرًا ضعافًا مهازيل، يجري الله تعالىٰ علىٰ أيديهم ما يشاء، فلا تخف منهم ولا ترهب، وكن إنسانًا واثقًا بالله ﷻ حكيمًا، وإياك إياك أن تغلبك المخاوف فإنك ستعيش شقيًا في حياتك، ولا تعمل شيئًا أبدًا.

---

(١) صحيح مسلم: (٧٧١).

(٢) صحيح مسلم: (٧٧١).

(٣) صحيح البخاري: (٧٢٩٢).

✍ أيها القارئ الكريم:

اعلم أن الحياة لا تقاس بعدد السنوات، بل إن الحياة تقاس بحجم الإنجازات، وكم من إنسان كان عمره أربعين سنة وخمسًا وثلاثين أو ثلاثين ومع ذلك خلد الله في الدنيا ذكره وأعظم في الآخرة أجره، وبالمقابل كم ممن هم في الدنيا الآن، وأعمارهم في السبعين والثمانين والتسعين والمائة، ومع ذلك لا يعلم بهم أحد، ولا يلتفت إليهم أحد؛ لأنهم عاشوا لأنفسهم فقط.

- فلنتحرر من العبودية لغير الله، ومن العبودية لأنفسنا، ولنتحرر من المخاوف والأوهام ومن العُقَدِ التي تملأ قلوبنا، وتعشش في أفكارنا، وتجعل الواحد منا ظلًا واهنًا ضعيفًا لا يحمل شيئًا، ولا يتحمل مسئولية، ولا يقدر علىٰ شيء، يَفْرَقُ حتىٰ من ظله، أما العبد الحقيقي لا يخاف شيئًا إلا الله تعالىٰ، لأن العبودية لله تعالىٰ عز وكرامة وشرف وقوة وشجاعة.

❊ ❊ ❊

الخاتمة نسأل الله حسنها

أتيتُــك راجيًــا يَــا ذا الجــلالِ ... ففـرِّجْ مـا تَـرَىٰ مـن سُـوءِ حَـالي
عَصَـيْتُك سَـيِّدِي ويْلِـي بجَهْلـي ... وَعَيـبُ الـذنبِ لـم يخطُـرْ ببـالي
إلـىٰ مـن يَشْـتكِي المملـوكُ إلَّا ... إِلـىٰ مَـوْلَاهُ يـا مَـوْلَىٰ المـوَالي
لَعَمْـرِي ليـتَ أُمِّـي لَـم تلِـدْني ... ولـم أُغْضِـبْك في ظُلَـمِ اللَّيَـالي
فَهَـا أنـا عبـدُك العَاصـي فقيـرٌ ... إِلـىٰ رُحْمـاكَ فاقبـلْ لـي سُـؤَالي
فـإنْ عاقَبْـتَ يـا ربِّـي تُعَاقِـبْ ... مُحقًّـا بالعـذابِ وبالنَّكَـال
وإن تَعْفُـو فعفْـوك قـد أَرَاني ... لِأفعـالي وأوزاري الثقـال

***

الفهرس

الإهداء ٧
مقدمة المؤلف ٨
عملي في هذه الصفحات: ١١
مدخل وتمهيد ١٥
العبودية والفطرة: ١٥
السعادة الحقيقية: ١٦
عجزي كنزي: ١٧
أهمية العبودية: ١٨
التمرد علىٰ العبودية: ٢٠
العبودية لا تتغير: ٢١
لا بديل عن الاتباع: ٢٢

***

العبودية ٢٤

تعريف العبودية: ٢٤
العبودية خاصة وعامة: ٢٥
والعبودية العامة: ٢٥
أما العبودية الخاصة (الشرعية): ٢٦

***

دواعي عبودية الله ﷻ ٣١

العبودية لها دواعي وبيانها كالتالي: ٣١
أولاً: من دواعي العبودية الفطرة: ٣١
حقيقة الفطرة التي يولد عليها المولود: ٣١
ثانيًا: من دواعي العبودية الشرائع: ٣٥
ثالثًا: الآيات الكونية التي تكشفها لنا الكشوفات العلمية الحديثة: ٣٧

***

مراتب العباد في درجات العبودية ٤٠

أولاً: مرتبة الرسالة والنبوة: ٤١
ثانيًا: مرتبة أصحاب الأنبياء والرسل: ٤١
ثالثًا: مرتبة المجاهدين في سبيل الله: ٤٢
رابعًا: مرتبة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء: ٤٤
منزلة العلم في حياة الأنبياء: ٤٥
خامسًا: مرتبة المحسنين من أهل الإيثار والصدقة ودفع كربات الناس: . ٥٠
سادسًا: مرتبة الصالحين المحافظين علىٰ الفرائض والنوافل: ٥١
سابعًا: مرتبة الدعاة إلىٰ الله ﷻ: ٥٢
ثامنًا: مرتبة أهل النجاة: ٥٣
تاسعًا: مرتبة الذين أسرفوا علىٰ أنفسهم: ٥٥

***

أشرف الأوصاف هو العبادة ٥٦

تحرير الإنسان من عبودية غير الله تعالىٰ. ٥٩
أولاً: عبودية الجاه والمنصب: ٦٠
ثانيًا: عبودية المال: ٦٠
ثالثًا: عبودية العادة: ٦٢

رابعًا: عبودية الوطن: ٦٤
خامسًا: العبودية للحياة: ٦٧
سادسًا: العبودية للطاغوت: ٦٧
معنىٰ الطاغوت؟ ٦٨

***

الخاتمة نسأل الله حسنها ٧٣
الفهرس ٧٤

***